الفصل الرابع

الميدان العمراني

الفصل الرابع

الميدان العمراني

ظفرت مصر بما فيها من مجموعات معمارية واثأر فنية تمثلت فيها مختلف الحضارات المتعاقبة على حكمها عبر مختلف العصور الإسلامية من الفتح الإسلامي لها سنة 21هـ/641م، إلى سنة 1295هـ/1878م، وكان العصر الأيوبي أحد هذه العصور التي شهدتها مصر في مجال العمارة. وتشاهد هذه الآثار ممثلة لكافة الإغراض التي أنشأت من أجلها مابين مساجد ومدارس ومستشفيات وخوانق وأسبله وكتاتيب وقناطر لتوصيل المياه وقصور وحمامات ووكالات للتجارة وقيساريات وقلاع وأسوار[1].

وقد تأثرت مصر ببلاد الشام في كثير من المجالات العمرانية في العصر الأيوبي، فإذا ما تناولنا موضوع المنشآت والعمائر في بلاد الشام، فلا بد أن نشير إلى الاستحكامات الحربية التي كان المجتمع في أمس الحاجة أيها، فقد قضى قرابة قرنين من الزمان في حروب مستمرة. بل يمكن القول إن المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في القرنين السادس والسابع للهجرة، كان مجتمع عسكري في الدرجة الأولى يدور في فلكه ويعمل لانجاز متطلبات كل الطبقات غير العاملة في العسكر[2].

لقد ساد العالم الإسلامي في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، الكثير من الإعمال الإنشائية والعمرانية على أيدي بعض الشخصيات القوية، الذين يتمتعون بروح بناءة خلاقة، ومن هؤلاء نور الدين محمود بن زنكي في الشام[3]، فيذكر أبو شامة جملة ما أقدم على عمارته الملك نور الدين محمود من منشات وعمائر في بلاد الشام،" وأما مافعله نور الدين محمود في بلاد الشام من المصالح ... فكثير عظيم، من ذلك انه بنى أسوار مدن الشام جميعها وقلاعه، فمنها حلب، وحماة، وحمص ودمشق ...وغيرها من القلاع والحصون،وحصنها وأحكم بناءها... وبنى أيضا المدارس بحلب،وحماه،ودمشق وغيرها للشافعية والحنفية. وبنى الجوامع في جميع البلاد... وجدد في غيرها من عمارة الجوامع... وبنى البيمارستان في البلاد؛ ومن أعظمها البيمارستان الذي بناه بدمشق... وبنى ايضاً الخانات في الطرق، فأمن الناس وحفظت أموالهم... وبنى أيضاً الأبراج على الطرق بين المسلمين والفرنج... وبنى الربط والخانقاهات في جميع البلاد الصوفية، ووقف عليه الوقوف الكثيرة ... وبنى بدمشق أيضاً دار الحديث... وهو أول من بنى دار الحديث فيما علمنا. وبنى أيضاً في كثير من بلاده مكاتب للأيتام، واجرى عليهم وعلى معلميهم الجرايات الوافرة. وهذا فعل لم يسبقه إليه ..."[4]

إما في مصر فقد اهتم سلاطين وملوك الدولة الأيوبية بالناحية العمرانية والبناء فأنفقوا عليها الأموال وأوقفوا عليها الأوقاف، وكان اهتمامهم واضحاً في بناء القلاع والحصون وذلك لأهميتها العسكرية، وشيدوا الدور والقصور والمدارس والجوامع والأسواق والبيمارستانات والجسور والقناطر والقنوات، فضلاً عن الأنشطة العمرانية الأخرى [5]، وكان السلطان صلاح الدين قد أخذ في إصلاح أحوال مصر وعمارتها[6]، مما أدى إلى أتساعها وزيادة اعتبارها،

---

(1) كمال الدين سامح: العمارة الإسلامية في مصر، مطبعة مصر ، (القاهرة، د.ت)، 19.

(2) محمد: المجتمع الإسلامي، 162.

(3) سلام : الأدب في العصر الأيوبي، 54.

(4) الروضتين، 105/1- 107

(5) حسن: مصر في العصور الوسطى، 459، التكريتي: الأيوبيين، 397؛ البدري: بهاء الدين قراقوش،64.

(6) ابن تغري بردي: النجوم الزهراء، 7/6

وأباح سكنى القاهرة للخاص والعام[1]، واستمر الاهتمام بالعمارة بمصر من قبل خلفاء صلاح الدين، كالملك الكامل والصالح نجم الدين أيوب، حيث ظهرت في مصر في عهدهم انجازات معمارية وفنية تدل على مدى تشجيعهم لها، نظراً للإمكانيات المتوفرة في بلادهم، مما يعكس الإبعاد الحضارية والفنية التي عبرت عن المستوى الذي وصلت إليه الحضارة العربية من نضج ورقي[2].

ومما يلاحظ أن المنشات العمرانية الأيوبية كانت تخضع في بنائها للطابع الإفرنجي، بسبب اتصال المسلمين بالصليبيين، الذين عرفوا بإقامة المنشآت الحربية[3]. والذين عمدوا منذ بداية عهدهم بالاستقرار في الشام إلى تشييد القلاع الضخمة والأسوار المحصنة لتضم المحاربين وأسرهم وأتباعهم[4]. حيث عرفت الشام هذا الطراز من المنشات المعمارية بحكم وصول الحملات الصليبية الأولى إلى أراضيها فتأثرت بها، ثم انتقل هذا التأثير إلى مصر بعد قيام دولة الأيوبيين فيها.

وقد واصل التطور الفني تقدمه في العصر الأيوبي بمصر على الرغم مما أحاط بها من ظروف حربية وسياسية خطيرة[5]، حيث أشرق على القاهرة فجر جديد، من خلال العمائر الضخمة التي أنشأت فيها، لتغدو مركزاً اقتصادياً، بعد أن كانت مقراً لبلاط الخلفاء الفاطميين، وما يتعلق به من المواكب والرسوم والاحتفالات [6]. ومن ابرز المعالم والمنشأت العمرانية التي التي عرفتها مصر في العصر الأيوبي وجاءت بفعل تأثرها بالشام هي:

أولاً: القلاع:

شاع بناء الحصون والقلاع واستخدامها في بلاد الشام ومن ثم في مصر، أيام الحروب الصليبية[7]، فقد كان لدخول مصر طرفاً أساسياً في الصراع الإسلامي الصليبي أثره في إضفاء بعض السمات العسكرية عليها والمتمثلة بالتحصينات والقلاع[8]. حيث تغيرت إستراتيجية صلاح الدين بعد انتقاله من الشام إلى مصر حين وجد في الأخيرة نقاط ضعف فشرع في تحصين مدنها لصد الهجمات المحتملة عليها[9]، وقد خطرت فكرة بناء القلعة على ذهن صلاح الدين، لأنه رأى أمثالها على المرتفعات العالية في الشام تتحكم في المدن والأقاليم، فكانت القلاع بهذه الصورة في مأمن من العدوان[10]. وبذلك يكون بناء القلعة في مصر مقتبس من العمارة الشامية[11]، إلا أن تشييد القلاع الإسلامية كان أقل مستوى إذا ما قيس بالقلاع الصليبية[12].

---

(1) مبارك : الخطط التوفيقية، 69/1.

(2) المقريزي: السلوك، 341/1؛ ابن تغري بردي: النجوم الزهراء، 237/6؛ بيكر: الأيوبيون، 225/3؛ عباس: تاريخ بلاد الشام، 279؛ الصائغ: عصر الملك الكامل، 189.

(3) حسن: مصر في العصور الوسطى، 463.

(4) زكي محمد حسن: فنون الإسلام، دار الرائد العربي،(بيروت، 1981)،69.

(5) عاشور: الأيوبيون والمماليك، 167.

(6) الخربوطلي: مصر العربية، 341.

(7) نزار وصفي اللبدي: صورة فن الحرب في أدب الدولتين الزنكية والأيوبية في مصر والشام، أطروحة دكتوراه غير منشورة،(كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، 1992)، 80.

(8) كحيلة: العقد الثمين، 253؛ الخربوطلي: مصر العربية الإسلامية،337.

(9) الصلابي : صلاح الدين الأيوبي ،399.

(10) سيد الأهل : أيام صلاح الدين، 94-95؛ عبد الرحمن زكي: " امتداد القاهرة من عصر الفاطميين إلى عصر المماليك (969هـ- 1517م)"، أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة، دار الكتب، القاهرة،(1971)،625/2.

(11) فروا: النظم الإسلامية،230؛ الحسين: موسوعة الحضارة، 278.

(12) اللبدي: صورة فن الحرب، 82.

1. قلعة صلاح الدين (الجبل):

تعتبر قلعة صلاح الدين في مصر من أفخم القلاع الحربية الإسلامية التي شيدت في القرون الوسطى[1]، ومن ابرز ما خلفه الأيوبيين من منشآت معمارية، فقد كانت القلاع من أهم مظاهر القوة في ذلك العصر[2]. فقد فكر صلاح الدين في بناء قلعة حصينة، كما هو الحال في الشام، ليحتمي بها ويشرف من خلالها على القاهرة والفسطاط معاً[3].

وكانت بداية العمل بإنشاء القلعة في سنة 572ه/1176م[4]، وأقام على بنائها الامير بهاء الدين قراقوش الاسدي[5]، وبالقياس إلى أماكن القلاع بالشام اختار السلطان صلاح الدين أو مهندسوه مكاناً بارزاً من جبل المقطم متوسط الارتفاع مشرفاً على القاهرة القديمة بحيث يستطيع أن يحمي جناحيها من صحراء السويس وسهول حلوان والنيل[6].

بدأ قراقوش ببناء القلعة فقطع الخندق وحفر واديه وعمقه وضيق طريقه، وهدم ما هناك من مساجد، وأزال القبور وهدم الأهرام الصغيرة التي كانت في الجيزة واستخدم حجارتها في بناء القلعة، وحفر في رأس الجبل بئراً ينزل إليها بدرج نحو ثلاثمائة درجة[7].

وتتألف القلعة من مساحتين من الأرض مستقلتين، الشمالية تقترب من شكل المستطيل ولها أبراج بارزة، ويفصلها عن الجنوبية جدار سميك ذو أبراج، وفي وسط هذا الجدار باب القلعة الذي يعرف باسم الباب الجواني. ويشكل الجزء الشمالي من القلعة الحصن نفسه[8]، في حين كان الجزء الجنوبي يضم الملحقات والقصور السلطانية وما يتبعها من دواوين وبيت المال وخزانة السلطان الخاصة والمساجد والمدارس والأسواق والحمامات والاصطبلات[9]. ويحيط بهذه القلعة سور من الحجر له أبراج، ولها بابان: احدهما مواجه لمدينة القاهرة ويسمى الباب المدرج، ويطلق على الباب الثاني باب القرافة. وبين هذين البابين مكان متسع يوصل إلى دهاليز، على يسرة الداخل منها باب يصل إلى جامع فسيح الأرجاء مرتفع البناء مبلط بالرخام، وسقوفه مبطنة بصفائح الذهب، وفي وسطه قبة تليها مقصورة يصلي فيها السلطان الجمعة والعيدين، وتحف الأروقة بصحن الجامع من جميع جهاته. وبصدر هذه الدهاليز مصطبة على جانبها ممر يدخل منه إلى ساحة يواجه الداخل إليها باب الإيوان الكبير وهو مرتفع البناء، به أقنية متسعة وعمد ضخمة. وبصدر هذا الباب سرير الملك، وهو عبارة عن منبر مرتفع من الرخام، يجلس عليه السلطان في الأيام التي يستقبل فيها سفراء الملوك[10].

---

(1) زكي: قلعة صلاح الدين،31

(2) حسن: مصر في العصور الوسطى ، 459؛ العريني: الشرق الأدنى، 211/1؛
Stanley Lane-Poole: A history of Egypt in the middle ages , 4th .ed, Frank Cass , (London,1968), 109.

(3) جومار: وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل، ترجمة: ايمن فؤاد سيد، ط1، مكتبة الخانجي، (القاهرة،1988)،30.

(4) الذهبي: العبر، 61/3 ؛ السبكي: طبقات الشافعية،339/4؛ المقريزي: السلوك، 63/1؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، 241/4؛ الحجازي وآخرون: النجوم الزاهرة، 192؛ زكي: قلعة صلاح الدين، 33.

(5) سبط بن الجوزي: مرآة الزمان،504/8؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، 91/4؛ الصفدي: الوافي، 166/24؛ ابن كثير: البداية والنهاية، 31/13؛ المقريزي: الخطط، 115/3؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 176/6؛ السيوطي: حسن المحاضرة، 333/2؛ مبارك: الخطط التوفيقية، 69/1.

(6) الحجازي وآخرون: النجوم الزاهرة، 390؛ سيد الأهل: أيام صلاح الدين،95.

(7) البغدادي: الإفادة والاعتبار، 108؛ ابن واصل: مفرج الكروب، 53/2-54؛ أبو شامة: الروضتين، 293/2؛المقريزي: الخطط، 40/3-41.

(8) حسن: فنون الإسلام، 69؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك، 168.

(9) القلقشندي: صبح الأعشى، 370/3؛ المقريزي: الخطط،44/3؛ حسن: تاريخ الإسلام، 575/4.

(10) حسن: تاريخ الإسلام، 574/4- 575؛ الحسين: موسوعة الحضارة، 376- 377.

وقد أحيط بالقلعة سور بأبراج نصف دائرية. ويبدأ هذا السور في الجانب الشرقي لبرج المقطم ويمتد نحو الجنوب والشرق والشمال حتى ينعطف ويقف لدى المكان الذي يشغله الآن المتحف الحرب. وينسب إلى صلاح الدين أيضاً البابان الخلفيان والجزء الداخلي من باب القرافة وباب المدرج وكذلك حائط السور الذي يمتد جنوبيه بما في ذلك الجزء الخلفي من البرج النصف الدائري الكائن بين الباب الأخير والباب الأوسط[1].

وبذلك لم تكن القلعة مجرد بناء حربي لحماية القاهرة، بل كانت أيضا مسكناً للسلطان ومقراً للحكومة ودواوين الدولة[2]، وهذا ما ذكره ابن جبير عندما زار مصر سنة 578هـ/1181م. إن القلعة " حصين المنعة، يريد السلطان أن يتخذه موضع سكناه ويمد سوره حتى ينتظم بالمدينتين مصر والقاهرة ..."[3]. فوحد صلاح الدين بهذا البناء جميع الأحياء والمباني المبعثرة بالأطراف وضمها إلى مدينة القاهرة، لتتوسع المدينة وتتنسق هندستها[4]، لتكون شاهداً على عظمة عصر صلاح الدين، ودليلاً ملموساً على شخصيته الفذة، رغم أن صلاح الدين لم يسكنها لأنه توفي قبل إتمام بنائها[5].

وكان الملك الكامل صاحب الفضل في إتمام بناء القلعة في سنة 604هـ/1207م، وشيد فيها القصور، وأقام أبراجها الرئيسية ومنها البرج الأحمر، ثم اتخذها مقراً له ومقاماً للحكم[6]. وقد انشأ الملك الكامل الأبراج العظمى المربعة والمستديرة، وكان الطراز المعماري لهذه الأبراج هو على نفس طراز القلاع في دمشق، واختيرت مواضعها بحيث تكسر تماثل المسافات بين الأبراج نصف الدائرية التي أقامها صلاح الدين[7]. وقد استخدمت الحجارة في عمارة أسوار وأبراج القلعة ومداخلها في العصر الأيوبي[8].

والملك الكامل هو أول من سكن قلعة الجبل، حيث لم يسكنها أحد قبله من الأيوبيين وإنما كان سكناهم بدار الوزارة، ثم استمر السكنى للملوك بالقلعة طوال العصر الأيوبي والمملوكي[9]، والمملوكي[9]، وحتى عصور متأخرة[10].

2. قلعة الروضة (الجزيرة):

في سنة 638هـ/1240م، أمر الملك الصالح نجم الدين أيوب ببناء قلعة الجزيرة – المعروفة بالروضة – قبالة مصر الفسطاط[11]. وكانت هذه الجزيرة متنزهاً ملوكياً ومسكناً

---

(1) زكي: قلعة صلاح الدين، 41.

(2) عاشور: نظم الإدارة، 350/3.

(3) رحلة ابن جبير، 25.

(4) حسن: تاريخ الإسلام، 572/4-573.

(5) أبو شامة: الروضتين، 293/2؛ ابن واصل: مفرج الكروب، 54/2؛ المقريزي: الخطط، 41/3؛ جاستون فييت: القاهرة مدينة الفن والتجارة، ترجمة: مصطفى العبادي، مكتبة لبنان، (بيروت، 1968)، 76.

(6) ابن عبد الظاهر: الروضة البهية،131-132؛ أبو شامة: الروضتين، 293/2؛ ابن واصل: مفرج الكروب، 54/2؛ المقريزي: الخطط،42/3؛ الحجازي وآخرون: النجوم الزاهرة، 390؛ الاسكندري وآخرون: تاريخ مصر، 253؛ عاشور: الأيوبيين والمماليك، 51-52.

(7) ماكنزي: القاهرة الأيوبية، 112.

(8) زكي: قلعة صلاح الدين،33-35.

(9) ابن عبد الظاهر: الروضة البهية، 132؛ أبو شامة: الروضتين، 293/2؛ابن واصل: مفرج الكروب، 54/2؛ المقريزي: الخطط، 42/3؛ الحجازي وآخرون: النجوم الزاهرة،390.

(10) عاشور: الأيوبيين والمماليك، 52.

(11) سبط بن الجوزي: مرآة الزمان، 737/8؛ الذهبي: تاريخ الإسلام،45/46؛ المقريزي: الخطط، 17/2؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 320/6؛ مبارك: الخطط التوفيقية، 75/1.

للناس قبل بناء القلعة[1]، وشرع في حفر أساسها وهدم الدور والقصور والمساجد، وهدم كنيسة لليعاقبة أيضاً، وتحول الناس من مساكنهم التي كانوا بها، فبنى فيها الدور السلطانية والأسوار وبني فيها ستين برجاً، وبنى بها جامعاً. وغرس بها جميع الأشجار ونقل إليها عمد الصوان وعمد الرخام، فانتقل إليها من قلعة الجبل وسكنها بأهله وحرمه[2]، واسكن بها مماليكه وسماهم البحرية[3]. وقد استغرق تشيدها ثلاثة أعوام[4]، فكانت هذه القلعة من اجل مباني الملوك[5]. كما كما كان الملك الصالح نجم الدين أيوب يشرف على بنائها وزخرفتها بنفسه حتى صارت تدهش الناظر من كثرة زخرفتها وحسن سقوفها المزينة وبديع رخامها[6].

وثمة قلاع أخرى بناها السلطان صلاح الدين في مختلف أنحاء البلاد، أهمها قلعة سيناء قرب عين صدر وتسمى قلعة الجندي وتقع شرق السويس على طريق آيلة وتتحكم في طريق الحج القديم[7]. كما يذكر المقريزي في أحداث سنة 577هـ/1181م، " أن السلطان أنتدب لعمارة قلعة تنيس وتحديد الآلات بها، عندما أشتد خوف أهل تنيس من الإقامة بها، فقدر لعمارة سورها القديم على أساساتها الباقية..."[8].

كما بنى بهاء الدين قراقوش قلعة المقس عندما بنى السور المحيط بالفسطاط والقاهرة، وهي برج كبير، وجعله على النيل بجانب جامع المقس[9] على الجهة الشرقية من الجامع[10]. كما بنى في القلعة أبراج أخرى لأغراض دفاعية[11].

ثانياً: الأسوار:

إن الفترة التي قضاها صلاح الدين في الشام – يوحد القوى الإسلامية ويحارب الصليبيين – أكسبته خبرة واسعة في مجال السياسة في تلك المرحلة. وذلك أن صلاح الدين شاهد في بلاد الشام عندئذ مدناً محصنة، وحصوناً مسورة، بأسوار عالية محكمة البناء، وما تلعبه هذه الحصون والاستحكامات في حماية المدن، فاخذ هذا النظام القوي ليطبقه بمصر من اجل حمايتها من أي هجمات من قبل الصليبيين[12]. ولتلعب هذه العمائر دوراً في نمو المدينة[13].

1. سور القاهرة:

---

(1) المقريزي: الخطط، 799/2.
(2) المقريزي: الخطط، 799/2، السلوك،30/1؛ ضيف: تاريخ الأدب العربي،32.
(3) عبد الرحمن بن حسن الجبرتي: تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، دار الجيل، (بيروت،د.ت)، 28/1.
(4) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة،320/6.
(5) المقريزي: السلوك،341/1.
(6) المقريزي: الخطط، 800/2.
(7) عاشور: مصر والشام، 146؛ طقوش: تاريخ الأيوبيين، 117.
(8) الخطط،508/1.
(9) جامع المقس: هو الجامع الذي أنشائه الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله على شاطئ النيل بالمقس. المقريزي: المقريزي: الخطط، 237/3.
(10) ابن عبد الظاهر: الروضة البهية،19؛ المقريزي: الخطط،97/2؛ مبارك: الخطط التوفيقية، 261/3–262.
(11) البدري: بهاء الدين قراقوش،68.
(12) عاشور: الأيوبيين والمماليك، 50-51.
(13) العريني: الشرق الأدنى، 210/1-211.

في نفس السنة التي بدأ بها بناء القلعة، أوعز السلطان صلاح الدين لبهاء الدين قراقوش ببناء سور عظيم[1] كان الهدف من بناء هذا السور هو حماية البلاد ولجمع المدن الأربعة وهي: الفسطاط التي أنشاها عمرو بن العاص، والعسكر التي أنشاها صالح بن علي العباسي[2]، والقطائع التي أنشاها احمد بن طولون، والقاهرة التي أنشاها جوهر الصقلي[3]، وقد تم استخدام الحجارة في بناء السور حيث انتفع من حجارة الأهرام الصغيرة التي هدمها في الجيزة[4]. وكان وكان هذا السور قد بني ثلاث مرات، الأولى وضعه جوهر الصقلي سنة 358هـ/968م، وكان بنائه من اللبن، والثانية وضعه أمير الجيوش بدر الجمالي في أيام الخليفة الفاطمي المستنصر (427- 487هـ/1035-1094م)، وجعل السور من اللبن أيضا، وجعل الأبواب من حجارة. إما الثالثة فكانت في عهد السلطان صلاح الدين وقد بناه الأمير بهاء الدين قراقوش من الحجارة هذه المرة[5]. وهنا يظهر التأثير الشامي حيث عرف صلاح الدين الأسوار والاستحكامات المبنية من الحجارة في الشام فنقل العمل بها إلى مصر.

وقد بلغ طول السور تسعة وعشرون ألف وثلاثمائة ذراع بالهاشمي[6]، حسبما تذكر المصادر التاريخية[7]، ومن ذلك مابين قلعة المقس على شاطئ النيل والبرج بالكوم الأحمر بساحل مصر عشرة آلاف وخمسمائة ذراع. ومن قلعة المقس إلى حائط القلعة بالجبل بمسجد سعد الدولة[8] ثمانية ألاف وثمانمائة واثنتان وتسعون ذراعاً. ومن جانب حائط القلعة من جهة مسجد سعد الدولة إلى البرج بالكوم الأحمر سبعة آلاف ومائتا ذراع. ودائر القلعة بحيال مسجد سعد الدولة ثلاثة آلاف ومائتان وعشر اذرع، وذلك طول قوسه في ابتدائه وأبراجه من النيل إلى النيل على التحقيق والتعديل...[9]، فيكون مجموع ما ذكر هنا تسعة وعشرون ألف وثمانمائة واثنتان ذراع، بالهاشمي، ويمكن أن يكون سبب هذا الاختلاف في الرقمين المذكورين لطول السور هو أن هذه المصادر قد دونت معلوماتها حول بناء السور لأول مرة فأعطت الرقم الأول، ثم كتبت الرقم الثاني بعد إدخال التعديلات والإضافات على السور.

---

(1) الأصفهاني: البرق الشامي،81/3؛ البنداري: سنا البرق،57؛ سبط بن الجوزي: مرآة الزمان،338/8؛ ابن عبد الظاهر: الروضة البهية ،19 ؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، 15/40؛ السبكي: طبقات الشافعية ، 339/4؛ ابن كثير: البداية والنهاية،31/13؛ المقريزي: الخطط، 237/3، السلوك، 63/1؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 78/6؛ الحنبلي: شفاء القلوب، 93.

(2) صالح بن علي عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم، تولى مصر من قبل الخليفة أبو العباس السفاح السفاح سنة 133هـ/750م، فكانت ولايته الأولى في سنة 136هـ/753م كانت ولايته الثانية.أبو عمر محمد بن يوسف الكندي: كتاب الولاة وكتاب القضاة،تحقيق:محمد حسن إسماعيل وآخرون،ط1،دار الكتب العلمية، (بيروت، 2003)،74، 77.

(3) سيد الأهل: أيام صلاح الدين، 95-96؛ العريني: الشرق الأدنى،211/1؛ شلبي: التاريخ الإسلامي، 164/5؛ حسن: تاريخ الإسلام، 573/4.

(4) ابن عبد الظاهر: الروضة البهية، 19؛ مبارك:الخطط التوفيقية، 69/1؛ زكي: قلعة صلاح الدين، 33-34.

(5) المقريزي: الخطط، 90/2، 97؛ ابن إياس: تاريخ مصر، 70/1؛ بيومي: قيام الدولة الأيوبية، 237.

(6) الذراع الهاشمي: ويقال له أيضاً ذراع العمل، وتبلغ 66.5سم كقيمة وسطى. هنتس: المكاييل والأوزان،89، 91.

(7) أبو شامة: الروضتين، 293/2؛ابن واصل: مفرج الكروب، 52/2؛ ابن عبد الظاهر: الروضة البهية، 20؛ ابن ابن إياس: تاريخ مصر، 70/1؛ الحجازي وآخرون: النجوم الزاهرة، 192.

(8) ولعله سعد الدولة الطواشي مملوك الأفضل أمير الجيوش، وزير الخليفة المستنصر الفاطمي.المقريزي: السلوك، 63/1.

(9) أبو شامة: الروضتين، 293/2؛ ابن واصل مفرج الكروب، 52/2-53؛ ابن عبد الظاهر: الروضة البهية،20. البهية،20.

لم يكن السور- كما يتبادر إلى الذهن- حائطاً يقام حول القاهرة غليظ البنيان ذا ارتفاع، وإنما أنشئت بها براج مستديرة ليرمي منها بالقذائف وتتخذ منافذ للمراقبة، ولاتزال منه باقية إلى اليوم تدل على عظمة بنائه وكثرة نفقاته[1]، والخبرة الفنية الكبيرة التي توحي من خلالها عظم الفكر العمراني والذوق الفني الرفيع[2].

2. أسوار أخرى:

في سنة 581هـ/1185م بنى المظفر تقي الدين عمر سور على مدينة الفسطاط بالحجر، عندما خرج إلى الإسكندرية لتفقد أحوالها[3]، كما أدار الملك الكامل على المنصورة سوراً مما يلي البحر، ووضع علية الآلات الحربية والستائر[4].

ثالثاً: المدارس:

تعتبر المدارس مما استحدث في الإسلام، إلا أنها لم تكن موجودة في زمن الصحابة ولاالتابعيين، وإنما ظهر العمل بها في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي. وأول من عرف ببناء مدرسة في الإسلام هم أهل نيسابور[5]، فبنيت بها المدرسة البيهقية، وبنى بها أيضا نصر بن سبكتكين مدرسة، وبنى بها أخوه السلطان محمود بن سبكتكين مدرسة، وبنى بها أيضاً المدرسة السعيدية، وبنى به أيضاً مدرسة رابعة[6]. إلا أن المدرسة بنظامها المتكامل لم تكن حادثاً ظهر بعد القرن الرابع الهجري، بل إنها مرت بمراحل قبل وصولها إلى هذا النظام المتكامل[7]. لذل يمكن القول أن المسجد كان أول مؤسسة علمية في الإسلام، ثم مر بمراحل خدمت التعليم والحضارة الإسلامية، إلى أن ظهرت المدارس التي أحدثت انقلاباً كبيراً وغيرت من أسلوب التعليم ونظامه[8].

أما أول مدرسة ظهرت بنظامها المتكامل، فكانت المدرسة النظامية ببغداد، لأنها أول مدرسة قرر بها المعاليم للفقراء، وهذه المدرسة منسوبة إلى الوزير نظام الملك أبي علي الحسن بن علي بن إسحاق بن العباس الطوسي، وزير ملك شاه بن ألب ارسلان بن داود بن ميكال بن سلجوق في مدينة بغداد أنشائها سنة 457هـ/1064م، وأتمها سنة 459هـ/1066م [9].

أما عن تاريخ نشأة المدارس في بلاد الشام،فيعود إلى أواخر القرن الرابع وبداية القرن الخامس الهجري /الحادي عشر الميلادي،عندما انشأ قاضي طرابلس وحاكمها، الحسن بن عمار، دار حكمة هي أشبه بمدرسة جامعة، على نحو دار الحكمة التي أنشأها الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله في مصر(386-411هـ/996-1020م) في حدود سنة 400هـ/1009م. وفي دمشق أسس شجاع الدولة، صادر بن عبد الله المدرسة الصادرية، على المذهب الحنفي في سنة 391هـ/1000م. من ذلك يتبين أن دمشق سبقت بغداد من حيث تأسيس المدارس، إلا أنها لم

---

(1) سيد الأهل: أيام صلاح الدين، 96.
(2) البدري: بهاء الدين قراقوش،69.
(3) المقريزي: السلوك، 90/1.
(4) المقريزي: الخطط ،643/1.
(5) نيسابور: مدينة عظيمة ببلاد فارس يقال لها ايرانشهر وهي مابين جيحون إلى القادسية ومن الري إلى نيسابور مائة وستون فرسخاً. الحموي: معجم البلدان، 331/5-332.
(6) المقريزي: الخطط، 436/3؛ السيوطي: حسن المحاضرة، 255/2.
(7) سلام: المدارس الإسلامية، 22.
(8)احمد: المدارس في بلاد الشام،23.
(9) المقريزي: الخطط، 436/3-437؛ السيوطي: حسن المحاضرة، 255/2.

تسبقها من حيث التنظيم الذي قرر فيها للفقهاء والمدرسين وللطلبة المعاليم[1]. أي بغداد سبقت مدارس نيسابور والشام من حيث النظام المتكامل الذي عرفته المدارس فيما بعد.

فالغاية من أنشاء المدارس كما يذكر ابن الحاج أن يأتيها غالباً من قصد العلم والاستغناء[2]، فليس كل من دخل الجامع أو المسجد يريد أن يتعلم بالضرورة، ولكن كل من دخل المدرسة يريد يتعلم بالضرورة[3].

ويبدو أن نور الدين محمود، هو الذي أحيا المشروع الذي بدأ به نظام الملك في أنشاء المدارس النظامية، واقتدى به لأنه كان رجلاً محباً للعلم، فأكثر من بناء المدارس أو ساهم في بنائها في بلاد الشام من دون تعصب لأي مذهب معين من المذاهب الأربعة[4].فشهدت الشام في تلك الفترة نهضة مدرسية كان لها انعكاساتها العلمية والفكرية لعامة المجتمع، ولعل التحديات التي تعرضت لها الأمة الإسلامية من قبل الغرب والمتمثلة بالحروب الصليبية ألقت على كاهل العلماء عبئ النهوض بالأمة من حال الوهن وإزالة الأفكار المريبة والهدامة التي طالت البنية الداخلية للمجتمع، فانفق للعلماء على بناء المدارس بسخاء في دمشق وحلب وغيرها[5]. أما عن المدارس في مصر قبل دخول الأيوبيين،فقد عرفت الإسكندرية نظام المدارس على غرار بلاد الشام، أما الفسطاط والقاهرة وبقية المدن المصرية فلم تعرف المدارس. ومن مدارس الإسكندرية، المدرسة التي أنشأها أبو بكر الطرطوشي[6]، في حدود سنة450هـ/1058م [7]. والمدرسة الحافظية (العوفية) التي أنشأها الوزير رضوان بن الولخشي[8] سنة 532هـ/ 1137م وجعل على رأسها الفقيه المالكي بن الطاهر بن عوف، وسميت بالمدرسة الحافظية نسبة للخليفة الفاطمي الحافظ (525-544هـ/ 1130-1149م)[9]. أما المدرسة الأخرى فهي المدرسة السلفية وأنشأها وزير الخليفة الظافر (544-549هـ/ 1149-1154م)، أبو الحسن علي بن سلار[10]. سنة544هـ/1149م، وجعل على رياستها الحافظ السلفي فسميت به[11]. لكن هذه المدارس كانت شديدة التخلف من حيث النظام المؤسسي والحيوية الثقافية مقارنة بمدارس بلاد الشام[12].

أما النقطة الهامة التي ظهرت في العصر الأيوبي فهي إن صلاح الدين أدخل نظاماً جديداً في مصر لم يكن معروفاً من قبل وهو نظام المدارس. على الرغم من وجود مدارس أخرى كدار الحكمة،الجامع الأزهر قبل مجيء الأيوبيين، ولكنهما أنشئتا لغرض خاص هو لإذاعة

---

(1) شميساني: مدارس دمشق، 13-15.

(2) أبو عبد الله محمد سعد بن الحاج :المدخل ، دار الفكر ، (بيروت ، د.ت) ، 102/2.

(3) بهجت: اثر الحضارة السلجوقية، 130/1.

(4) سلام: الأدب في العصر الأيوبي، 54؛ احمد: المدارس في بلاد الشام، 43.

(5) سلطان جبر سلطان: "جهود العلماء المسلمين في مؤسسات المجتمع المدني في عصر الحروب الصليبية"، الصليبية"، مجلة آداب الرافدين ، العدد (40)، كلية الآداب، جامعة الموصل، (2005)، 95.

(6) محمد بن الوليد بن خلف بن سليمان بن أيوب الفهري المعروف بالطرطوشي ومنها أصله، وهي من بلاد الأندلس محل ميلادهُ، وهو مالكي المذهب، توفي سنة(520هـ/1126م). ابن خلكان: وفيات الأعيان،262/4، 264.

(7) الصلابي: صلاح الدين الأيوبي، 297؛ سلام: المدارس الإسلامية،60-63.

(8) الوزير رضوان بن ولخشي أمير الجيوش وزير الحافظ ، ولي الوزارة سنة 523هـ/1137م، قتلوه السودان بتوجيه من الحافظ سنة (543هـ/1148م). ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة،281/5.

(9) سلام: المدارس الإسلامية، 63.

(10) الوزير العادل سيف الدين أبو الحسن علي بن إسحاق بن السلار، وزير الظافر،كردياً زرزارياً، تولى الوزارة سنة 543هـ/1148م، قتل سنة (548هـ/1153م). ابن خلكان: وفيات الأعيان، 416/3، 418.

(11) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 105/1؛ حمزة : الحركة الفكرية، 158؛ ضيف: تاريخ الأدب العربي ، 82-83.

(12) ماكنزي: القاهرة الأيوبية، 184.

المبادئ العقائدية الخاصة بالفاطميين بين الناس. وأما المدارس التي نشرها صلاح الدين فهي دور للعلم يدرس فيها الجميع الشريعة الإسلامية على المذاهب الأربعة.[1].

وبذلك يكون صلاح الدين قد حاكى سيده نور الدين محمود في الشام، من خلال إنشاء المدارس في مصر على النمط الذي قام في الشام[2]. وقد حذا خلفاء صلاح الدين وولاته والمقربون إليه حذوه ببناء المدارس وحبس الأوقاف عليها[3]. والى جانب هؤلاء العظماء كان الأمراء والأغنياء والتجار يتسابقون في بناء المدارس والوقوف عليها بما يضمن استمرارها وإقبال الطلاب عليها، وكثيرون منهم جعلوا بيوتهم مدارس، وجعلوا مافيها من كتب وما يتبعها من عقار وقفاً على طلاب العلم الدارسين فيها[4].

إن المدارس التي أنشئت بمصر في العصر الأيوبي كانت موزعة على بيئات ثلاث، وهي بيئة الإسكندرية وبيئة القاهرة، وبيئة قوص أو الصعيد[5]، بل ويبدو أنه لم يكن تخلو بلدة كبيرة في مصر من مدرسة[6]. وهذا ماتؤكده المصادر التاريخية التي تذكر أن "القاهرة هي أكثر عمارة واحتراماً وحشمة من الفسطاط لأنها أجل مدارس، وأضخم خانات، وأعظم دثارا، لسكنى الأمراء فيها، لأنها المخصوصة بالسلطة..."[7]. أما ابن جبير فيذكر في رحلته إلى الإسكندرية ومشاهدته لها: "ومن مناقب هذا البلد ومفاخره العائدة في الحقيقة إلى سلطانه (صلاح الدين): المدارس والمحارس (مأوى للدارسين والزهاد والمسافرين والفقراء) الموضوعة فيه لأهل الطلب والتعبد، يفدون من الأقطار النائية فيلقى كل واحد منهم مسكناً يأوي إليه ومدرساً يعلمه الفن الذي يريد تعلمه..."[8]

ومن الملاحظ إن المدارس التي قام ببنائها الأيوبيين في مصر كانت مفتحه أبوابها، وكان المدرسون موجودين بها، ويأتيها طلبة العلم من كل مكان[9]، فكانت هذه المدارس أشبه بالجامعات فهي معاهد للتعليم العالي، ولكل مدرسة مذهبها الذي تتبعه، وان كان بعضها يشمل أربع كليات للمذاهب الأربعة. ولم يقتصر التعليم فيها على العلوم الدينية فحسب، بل شمل العلوم العقلية والطبيعية كذلك[10]. ويشمل مخطط المدرسة طابقين من الغرف للطلبة والمدرسين يقومان حول قاعة مكشوفة وأبهاء من الأواوين الطويلة في وسط كل جانب من الجانبين وأحياناً يقتصر على إيوان واحد[11].

---

(1) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 206/7؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 54/6-55 ؛ بيومي: قيام الدولة الأيوبية،237-238 ؛ طقوش: تاريخ الأيوبيين، 212؛ بدوي: الحياة العقلية، 11.

(2) حمزة: الحركة الفكرية، 82؛ الباشا: الفنون الإسلامية، 1055/3؛ شلبي: التاريخ الإسلامي،179/5 ؛ عاشور: عاشور: مصر والشام، 119 ؛ احمد: المدارس في بلاد الشام، 43.

(3) حسن: مصر في العصور الوسطى،462؛ سلام: الأدب في العصر الأيوبي، 55؛عاشور: مصر والشام،120، والشام،120، الأيوبيون والمماليك،140؛ نوري: سياسة، 435؛ ضيف: تاريخ الأدب العربي، 81؛ الحسين: موسوعة الحضارة،372؛ طقوش: تاريخ الأيوبيين، 219.

(4) مصطفى السباعي:من روائع حضارتنا،ط1،دار السلام، (القاهرة،1998)،104.

(5) حمزة: الحركة الفكرية ،157.

(6) ضيف: تاريخ الأدب العربي،83.

(7) الحجازي وآخرون: النجوم الزاهرة، 27.

(8) رحلة ابن جبير،15.

(9) فرغلي: الحركة التاريخية، 70.

(10) سلام: الأدب في عصر صلاح الدين، 85؛ عاشور: مصر والشام، 120- 121، الأيوبيون والمماليك، 142، غنيم: الدولة الأيوبية، 138؛ شميساني: مدارس دمشق، 33.

(11) عباس: تاريخ بلاد الشام،288.

وكانت المدرسة بناء متجه إلى القبلة، وفي وسطه صحن كبير مربع، وفي كل جانب من جوانبه الأربعة إيوان تعلوه قبة تحتها محراب[1]، وكانت المدارس المصرية في الغالب تشمل على إيوانين متقابلين بينهما فناء ويرتبطان معاً بواسطة غرف متصلة[2].ويحيط بالصحن من جوانبه الأربعة أروقة طويلة مقنطرة السقف، كأنها أجنحة المسجد[3]، ومن المحتمل أن الإيوان القبلي كان يستعمل كمسجد إذا كانت المدرسة لمذهب واحد، فهو يستخدم كمسجد عندما يحين وقت الصلاة فقط، وكقاعة للدرس بين مواعيد الصلوات[4]. ويغلب على الظن أن مصر قد عرفت نظام المدارس ذات الايوانات الأربعة عن طريق الشام في عهد صلاح الدين[5].

وبذلك تكون المدارس ملحقة بالمساجد على غرار ما كان في الشام، وقد روعي فيها الطراز الذي قامت عليه مدارس الشام التي أنشاها نور الدين محمود، فكانت نقلة جديدة في عالم البناء[6]. وبعد ذلك تطور التصميم من الايونات الأربعة إلى الشكل المتقاطع المتعامد وهو نقطة هامة في شكل تخطيط المسجد بعد ذلك[7].

وسارت مصر بذلك في بناء المدارس على منوال المدارس ذات العمارة الشامية، واستقرت منذ دخول الأيوبيين وخلال العصر المملوكي، فأخرجوا أبدع ما يفاخر به الفن العربي، ومن مزايا المدرسة الأيوبية القوة والمتانة. وعلى مادة البناء الصلبة فيها من الحجر الناعم يمكن أن تظهر أبسط المواضيع الزخرفة في منتهى الأناقة ولكنها كانت كالمدارس الأندلسية تستند على قاعدة الإغراق في الزخرفة لإظهار ما فيها من سحر وجمال[8].

ومن المدارس التي ظهرت في مصر في العصر الأيوبي ذات الطراز المماثل لطراز المدارس في بلاد الشام هي:

- **المدرسة الناصرية الأولى (الصلاحية):** بناها السلطان صلاح الدين سنة 556هـ/1170م، بعد أن هدم سجناً كان يعرف بدار المعونة[9] بجوار جامع عمرو بن العاص وجعلها مدرسة للشافعية. كما عرفت المدرسة باسم زين التجار وهو أول من تولى التدريس بها[10].

---

(1) حسن: تاريخ الإسلام، 569/4؛ الخربوطي: مصر العربية الإسلامية،352.

(2) الباشا: الفنون الإسلامية ، 1069/3.

(3) لينبول: سيرة القاهرة ، ترجمة: حسن إبراهيم حسن وآخرون، ط2، مكتبة النهضة المصرية (القاهرة،1902)،171.

(4) لينبول: سيرة القاهرة،171؛ الباشا: الفنون الإسلامية،1069/3.

(5) رزق: خانقاوات الصوفية، 68/1.

(6) الباشا: الفنون الإسلامية، 1067/3؛ حسن: تاريخ الإسلام، 569/4؛
Claude Cahen: "Ayyubids", Encyclopedia of Islam, VOL I, (1960), 801,760,807.

(7) سام□: العمارة الإسلامية،74.

(8) حتى وآخرون: تاريخ العرب، 782/2 ؛ الحسين: موسوعة الحضارة،277.

(9) دار المعونة: أسمها مأخوذ من ظروف أنشائها، إذ أنها بنيت بمعونة المسلمين لينزلها ولاتهم، ثم جعلت داراً داراً للشرطة، ثم حولت في عهد العزيز بالله الفاطمي إلى سجن عرف باسم حبس المعونة، ثم حولها صلاح الدين إلى مدرسة للشافعية. الذهبي: تاريخ الإسلام،29/39؛ المقريزي: الخطط،811/2.

(10) ابن الأثير: الكامل، 366/11؛ البنداري: سنا البرق، 57؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان،283/8؛ أبو شامة: الروضتين، 117/2؛ ابن واصل: مفرج الكروب، 197/1؛ ابن دقماق: الانتصار،93/5؛ المقريزي: الخطط، 438/3؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 385/5؛ الهاشمي وآخرون: الحضارة العربية،155.

- **المدرسة القمحية:** بناها السلطان صلاح الدين سنة 566هـ/1170م، وكان موضعها يعرف بدار الغزل[1] فأقامها صلاح الدين مدرسة وأوقفها للمالكية، ووقف عليها الأوقاف[2].
- **المدرسة القطبية:** بناها الأمير قطب الدين خسرو بن بلبل بن شجاع الهدباني، أحد أمراء السلطان صلاح الدين في سنة570هـ/1174م، هذه المدرسة بالقاهرة في درب الحريري داخل حارة الفرن، وجعلها وقفاً للشافعية[3].
- **مدرسة بن الارسوفي:** بناها التاجر العسقلاني عفيف الدين ابو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الله بن هبه الله الارسوفي، سنة570هـ/1174م، وهذه المدرسة كانت بالبزازين التي تجاور خط النخالين بمصر، وجعلها وقفاً للشافعية[4].
- **المدرسة التقوية:** بناها الأمير تقي الدين عمر بن شاهنشاه ابن أخي صلاح الدين، لم يعرف على التحديد تاريخ بناء هذه المدرسة، إلا أن المصادر تذكر أن تقي الدين عمر اشترى منازل العز[5] بمصر بالقرب من باب القنطرة قبلى الفسطاط، في سنة 566هـ/1170م [6]، وقد أنشئت بعد وفاة العاضد، وخروج صلاح الدين إلى الشام في سنة 570هـ/1174م وقبل سفر تقي الدين إلى حماه وتملكه إياها سنة571هـ/1157م، وأوقفها للشافعية[7].
- **المدرسة الناصرية الثانية:** بناها السلطان صلاح الدين سنة572هـ/1176م، بجوار تربة الإمام الشافعي(ﷺ) بالقرافة بمصر، ووقف عليها وقوف كثيرة، ودرس فيها المذهب الشافعي[8]. وقد وصفها السيوطي بقوله: " وينبغي أن يقال لها تاج المدارس وهي أعظم مدارس الدنيا على الإطلاق..."[9]. أما وصف ابن جبير لها فيذكر، " مدرسة لم لم يعمر بهذه البلاد مثلها، لا أوسع مساحة ولا أحسن بناء، يخيل لمن يطوف عليها أنها بلد مستقل بذاته، بإزائها الحمام، إلى غير ذلك من مرافقها، والبناء فيها حتى الساعة، والنفقة عليها لاتحصى..."[10].

---

(1) دار الغزل: كانت قيسارية يباع فيها الغزل، وعرفت كذلك باسم المدرسة القمحية لأن القمح كان يوزع على على فقهائها من ضيعة بالفيوم، أوقفها صلاح الدين عليها. الذهبي: تاريخ الإسلام، 29/39؛ابن دقماق: الانتصار،95/5.

(2) البنداري: سنا البرق،57؛ أبو شامة: الروضتين،118/2؛ ابن واصل: مفرج الكروب،198/1؛ المقريزي: الخطط ،389/3، 439.

(3) ابن عبد الظاهر: الروضة البهية، 90؛ المقريزي: الخطط ،443/3؛ مبارك: الخطط التوفيقية، 200/3.

(4) المقريزي: الخطط، 440/3.

(5) منازل العز: من دور الخلفاء الفاطميين بنتها ام الخليفة العزيز بالله بن المعز وعرفت بمنازل العز، وكانت وكانت تشرف على النيل وصارت معدة لنزهة الخلفاء. المقريزي: الخطط، 440/3.

(6)ابن الأثير: الكامل، 366/11؛ البنداري: سنا البرق، 58؛ سبط بن الجوزي: مرآة الزمان، 283/8؛ أبو شامة: الروضتين، 118/2؛ ابن دقماق: الانتصار،93/5؛ المقريزي: الخطط، 334/2.ابن كثير: البداية والنهاية،263/12.

(7) سلام: المدارس الإسلامية، 82-83.

(8) ابن الأثير: الكامل، 440/11-441؛ البنداري: سنا البرق،120؛ سبط بن الجوزي: مرآة الزمان، 339/8؛ أبو شامة: الروضتين، 294/2؛ ابن واصل: مفرج الكروب، 54/2؛ المقريزي: الخطط، 115/3، 533، السلوك،63/1؛ الحنبلي: شفاء القلوب، 93.

(9) حسن المحاضرة، 257/2.

(10) رحلة ابن جبير، 22-23.

- **مدرسة المشهد الحسيني:** بناها السلطان صلاح الدين بجانب المشهد الحسيني بمصر، وجعل عليها وقفاً كثيراً، لم تحدد المصادر تاريخ إنشاء المدرسة، إلا أنها كانت وقفاً للشافعية[1].
- **المدرسة السيوفية:** بناها السلطان صلاح الدين سنة572هـ/1176م بالقاهرة بالقرب من باب الزهومة، وهي من جملة دار الوزير الفاطمي المأمون البطائحي[2]، وسميت بالمدرسة السيوفية لان سوق السيوفيين كان على بابها آنذاك، وهذه المدرسة هي أول مدرسة وقفت على الحنفية بمصر[3].
- **المدرسة الفاضلية:** بناها القاضي الفاضل سنة580هـ/1184م بالقاهرة بدرب ملوخية، وهذه المدرسة أول مدرسة تجمع بين مذهبين هما الشافعية والمالكية[4]، وقد بنيت بعد المدرسة الاسدية بستة عشر عاماً، وهي أول مدرسة لمذهبين في دمشق[5].
- **مدارس الفيوم:** وعددها خمسة مدارس، ثلاثة منها بنيت في العصر الأيوبي على يد السلطان صلاح الدين وتقي الدين عمر، لم يعرف بالتحديد تاريخ أنشاء هذه المدارس إلا أن المؤكد أن اثنان منها أوقفت للشافعية، وواحدة للمالكية[6].
- **المدرسة الازكشية:** بناها الأمير سيف الدين ايازكوج الاسدي مملوك أسد الدين شيركوه، واحد امراء السلطان صلاح الدين سنة592هـ/1196م، في القاهرة على راس السوق الذي كان يعرف بالحروقيين، وأوقفها للفقهاء الحنفية[7].
- المدرسة السيفية: كانت داراً من المدرسة القطبية، فأوقفها سيف الإسلام طغتكين بن أيوب بن شادي، اخو السلطان صلاح الدين، مدرسة سنة 593هـ/1197م في أيام وزارة صفي الدين بن شكر[8]، وهذه المدرسة بالقاهرة فيما بين خط البندقانيين وخط الملحيين وموضعها من جملة دار الديباج[9]. لم تذكر المصادر شيء عن تاريخ بنائها والمذهب الذي اختصت به[10].
- مدرسة أسوان: وهي من المدارس التي أستدل على وجودها من خلال ترجمة حياة القاضي أبي الطاهر إسماعيل بن محمد بن حسان الأسواني الشافعي المتوفي سنة(599هـ/1202م) الذي كان حاكماً بأسوان ومدرساً بمدرستها[11].

---

(1) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 207/7؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 55/6؛ الحنبلي: شفاء القلوب، 189؛ 189؛ السيوطي: حسن المحاضرة، 256/2.

(2) هو أبو عبد الله محمد بن الأمير نور الدولة أبي شجاع فاتك ألمستنصري. اتصل بخدمة الأفضل بن أمير الجيوش ، وتقلد عدة مناصب حتى توفي سنة (522هـ/1128م). المقريزي: الخطط، 283/2.

(3) المقريزي: الخطط، 390/3، 443-444؛ الحنبلي: شفاء القلوب، 189؛ ابن إياس: تاريخ مصر، 72/1؛ مبارك: مبارك: الخطط التوفيقية، 109/2؛ بدوي: الحياة العقلية، 45.

(4) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 162/3؛ ابن عبد الظاهر: الروضة البهية، 88؛ المقريزي: الخطط، 444/3-445؛ مبارك: الخطط التوفيقية، 238/2.

(5) النعيمي: الدارس، 152/1.

(6) فخر الدين عثمان بن إبراهيم النابلسي: تاريخ الفيوم وبلادها، دار الجيل، (بيروت، 1974)، 29،مبارك: الخطط التوفيقية، 432/3.

(7) ابن عبد الظاهر: الروضة البهية، 87؛ المقريزي: الخطط، 448/3؛مبارك: الخطط التوفيقية، 129/3.

(8) ابن عبد الظاهر: الروضة البهية،90؛ المقريزي: الخطط ،449/3.

(9) المقريزي: الخطط، 449/3.

(10) سلام: المدارس الإسلامية، 93.

(11) كمال الدين جعفر بن ثعلبين الادفوي: الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد، ط1، المطبعة الجمالية، (مصر،1904)، 85-86؛ السيوطي: حسن المحاضرة، 408/1.

- المدرسة الغزنوية: بناها الأمير حسام الدين قايماز ألنجمي مملوك نجم الدين أيوب والد صلاح الدين، وأقام بها الشيخ شهاب الدين أبو الفضل احمد بن يوسف بن محمد الغزنوي البغدادي المقرئ الحنفي المتوفى سنة(599هـ/1202م). ودرس بها فعرفت به[1].
- المدرسة الهكارية: بناها الأمير جمال الدين الهكاري في القاهرة بين القصرين، وقد أوقفها للفقهاء الشافعية[2].
- المدرسة العادلية (ابن شاس): بناها الملك العادل الأيوبي، في مصر. بخط الساحل، بجوار الربع العادلي، تولى التدريس فيها تقي الدين أبو علي الحسين بن عبد الرحيم بن عبد الله بن نجم بن شاس فعرفت باسمه فيما بعد، وأوقفها للشافعية[3].
- المدرسة الصاحبية: بناها الصاحب صفي الدين عبد الله بن شكر وزير الملك العادل، وكان موضعها من جملة دار الوزير الفاطمي يعقوب بن كلس ومن جملة دار الديباج، وقد أوقفها للفقهاء المالكية، وجعل فيها خزانة كتب[4].
- المدرسة القطبية: عرفت هذه المدرسة بالست عصمة الدين خاتون مؤنسة القطبية – المعروفة بدار إقبال العلائي- ابنه السلطان الملك العادل الأيوبي، وقد بنتها في حارة زويلة مما يلي في رحبة كوكاي، وقد بنتها وقفاً لأخيها قطب الدين احمد في سنة605هـ/1208م، للشافعية[5].
- المدرسة الشريفية: بناها الأمير الشريف فخر الدين أبو نصر إسماعيل بن حصن الدولة بن ثعلب، احد أمراء الدولة الأيوبية بمصر، في سنة 612هـ/1215-1216م، في القاهرة بدرب كركامه على راس حارة الجودرية، ووقفها للشافعية[6].
- المدرسة الفخرية: بناها الأمير فخر الدين أبو الفتح عثمان بن قزل البارومي، استادار الملك الكامل الأيوبي وأتمها سنة 622هـ/1225م، بالقاهرة فيما بين سويقة الصاحب ودرب العداس[7].
- المدرسة الصيرمية: بناها الأمير جمال الدين شويخ بن صيرم احد أمراء الدولة الكاملية والمتوفى سنة(636هـ/1238م)، وهذه المدرسة داخل الجملون الصغير، من رأس سويقة أمير الجيوش، فيما بينها وبين الجامع الحاكمي[8].
- المدرسة الصالحية: بناها الملك الصالح نجم الدين أيوب، في بداية سنة639هـ/1241م، وأتمها سنة641هـ/1243م في القاهرة بخط بين القصرين من جملة القصر الكبير الشرقي وهي أول مدرسة بمصر يعمل بها دروس للمذاهب الأربعة، فكان بالمدرسة أربعة أواوين لكل طائفة إيوان خاص بها[9]. ومن المصادر ما أطلقت عليها اسم

---

(1) المقريزي: الخطط،507/3.
(2) الصفدي: الوافي،197/13.
(3) المقريزي: الخطط ،442/3.
(4) ابن عبد الظاهر: الروضة البهية،89؛ المقريزي: الخطط،485/3؛ الهاشمي وآخرون: الحضارة العربية،155. العربية،155.
(5) المقريزي: الخطط، 509/3.
(6) المقريزي: الخطط، 463/3-464.
(7) ابن عبد الظاهر: الروضة البهية، 87؛ المقريزي: الخطط، 448/3.
(8) المقريزي: الخطط،475/3؛ مبارك: الخطط التوفيقية، 129/3، 210.
(9) ابن واصل: مفرج الكروب، 87/6؛ ابن عبد الظاهر: الروضة البهية، 85-86؛ المقريزي: الخطط،465/3، السلوك، 38/1؛ الباشا: الفنون الإسلامية، 1069/3؛ الهاشمي وآخرون: الحضارة العربية، 155.

المدرستين الصالحيتين[1]، وهذا الأمر يعود إلى أن هذه المنشاة كانت من الناحية المعمارية وحدة واحدة من الخارج فأطلق عليها أسم مدرسة، ولكن تصميمها الداخلي مقسم إلى قسمين أحدهما: الجانب الجنوبي وبه إيوانين أولهما للحنفية والأخر للحنابلة. وثانيهما: الجانب الشمالي وبه إيوانين أيضاً أولهما للمالكية والأخر للشافعية فجاز أن يطلق عليها أسم (مدرستين)[2].

ويضاف إلى هذه المدارس مدارس أخرى كانت عبارة عن بيوت فنقلها أصحابها إلى مدارس سواء في حياتهم أو بعد مماتهم حسب وصية يوصون بها[3].

رابعاً: دار الحديث الكاملية:

أنشاء الملك الكامل الأيوبي دار الحديث الكاملية في القاهرة سنة 622هـ/1225م[4]، وقد أشار المقريزي " أن موضعها كان داراً تعرف بابن كستول بسوق الوراقين بخط بين القصرين"[5]. وقد أشارت المصادر التاريخية أن دار الحديث الكاملية هي ثاني دار عملت لدراسة الحديث الشريف، فأن اول دار للحديث بناها الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي في دمشق[6]. وبذلك يكون بناء دار الحديث الكاملية في مصر من جملة مؤثرات الشام عليها.

بالرغم من أن بعض الدراسات الحديثة قد أشارت إلى بناء دارين للحديث في الثلث الأول من القرن الرابع الهجري وهما: (دار الحديث البسطامية) و(دار السنة الصبغية) وهما يسبقان(دار الحديث) بدمشق بأكثر من قرنين وثلث، كما يسبقان(دار الحديث الكاملية) بالقاهرة بنحو ثلاثة قرون[7].

أما عن الطراز العمراني لدار الحديث الكاملية فكان مشابهاً لطراز العمارة بالنسبة للمدرسة على مايبدو، إلا أنها اختصت بدراسة الحديث الشريف دون العلوم الأخرى فتميزت عن المدرسة من حيث التسمية والنظام التعليمي فيها. وكلف بناء هذه المدرسة مبالغ كبيرة، كما أوقف عليها الربع (السوق) التي أنشاها بجوارها على باب الحرنشف، الذي يمتد إلى الطريق لجامع الأزهر[8].

وتكونت دار الحديث الكاملية من أربعة ايوانات هي الإيوان الشرقي، والإيوان الشمالي الغربي، وإيوان القبلة، والإيوان الجنوبي الغربي[9]، ويذكر الدكتور احمد فكري أن مديرية الآثار العامة حاولت في سنة 1321هـ/1903م، الكشف عن شيء جديد من خلال البحث في أثار دار الحديث هذه، فتوصلت إلى وجود " جزء من قاعة مستطيلة... طولها عشرة أمتار ونصف

---

(1) سبط بن الجوزي: مرآة الزمان، 737/8؛ الداوداري: كنز الدرر، 347/7؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، 45/46؛ الجبرتي: عجائب الآثار، 28/1.

(2) سلام: المدارس الإسلامية،122.

(3) للمزيد من المعلومات عن هذا النوع من المدارس ينظر: أطروحة دكتوراه المدارس الإسلامية في مصر في العصر الأيوبي لأيمن شاهين سلام.

(4) أبو شامة: الذيل ،214؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان،81/5؛ ابن عبد الظاهر: الروضة البهية،86؛ المقريزي: السلوك، 258/1؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة،258/6؛ النعيمي: الدارس،277/2.

(5) الخطط،467/3-468.

(6) المقريزي: الخطط،468/3؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة،229/6.

(7) ناجي معروف: "مدارس قبل النظامية"، مجلة المجمع العلمي العراقي، العدد(22)، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، (1973)،105.

(8) المقريزي: الخطط،468/3.

(9) سعاد ماهر: مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية،(القاهرة، 1976)،206/2.

المتر تقريباً وعرضها تسعة أمتار ونصف المتر، وهي مسقوفة بقبة مدببة مبنية بالأجر... تتكون من مداميك أفقية تعلوها مداميك رأسية وتبلغ فتحة القبة تسعة أمتار ونصف المتر تقريباً، ويبلغ ارتفاعها عند مستوى منبتها (انحناؤها) ستة أمتار تقريباً ... وجدران القاعة مبنية من الحجارة، وهي سميكة يقرب سمكها من المترين، إما سمك القبة فهو متدرج يبلغ عند المنبت فوق الجدار مترا، وينخفض عند القمة إلى نصف متر..."[1].

خامساً: الخوانق والربط والزوايا:

ومن الظواهر الحضارية التي ترتبت على انتشار حركة التصوف بمصر في العصر الأيوبي معمارياً بناء الخانقاوات[2]، وقد أخذتها من بلاد الشام التي عرفتها منذ سنة 400هـ/1009م [3].

وتعطي الخانقاه والرباط والزاوية معاً واحداً في الغالب فهي معاهداً أو مؤسسات دينية أسلامية لإيواء الزهاد والمتعبدين والمنقطعين للعلم من الرجال والنساء. فالخانقاه لفظة فارسية بمعنى البيت، واما الرباط والزاوية فلفظان عربيان[4]. كما إن الرباط والزاوية على علاقة لاتنفصم مع الخانقاه، لان التصوف قد مورس في كل من هذه الأبنية جميعاً، فجاء الرباط سابقاً على الخانقاه وجاءت الزاوية لاحقة عليه[5].

وقد أشار المقريزي أن الخانقاه "جعلت لتخلى الصوفية فيها لعبادة الله تعالى" [6] أما الرباط فهو " دار يسكنها أهل طريق الله"[7]، بعد أن كان الرباط أول الأمر يطلق على الثغر الذي يرابط فيه المجاهدون[8]. وقد أسترعى كثرة الزوايا في مصر نظر ابن بطوطة وأشار إلى أنها نفسها خوانق، حيث يذكر: "وأما الزاويا فكثيرة وهم يسمونها الخوانق واحدتها خانقاه... " [9].

دخل بناء الخوانق والزوايا إلى مصر في العصر الأيوبي على يد السلطان صلاح الدين[10]، الذي بنا الخانقاه الصلاحية، المعروفة بـ "سعيد السعداء" في سنة 569هـ/1173 [11]، في القاهرة بخط رحبة العيد، وأوقف عليها بستان الحبانية، وقيسارية الشرب بالقاهرة، وناحية دهمرو من البهنساوية[12]. كما بنا السلطان صلاح الدين زوايا وربط للصوفية والمتعبدين والعلماء الغرباء المسافرين، وكانت هذه الدور مزودة بكل ما يحتاجون إليه من خدمات[13]. وقد

---

(1) مساجد القاهرة ومدارسها في العصر الأيوبي، دار المعارف،(مصر، 1969)،2/56-57.
(2) المقريزي: الخطط، 571/3؛ بهجت: أثر الحضارة السلجوقية، 1/128-129.
(3) المقريزي: الخطط، 567/3؛ الحسين: موسوعة الحضارة،276؛ طقوش: تاريخ الأيوبيين،215.
(4) طقوش: تاريخ الأيوبيين، 214.
(5) رزق: خانقاوات الصوفية، 98/1.
(6) الخطط، 567/3.
(7) الخطط ،600/3.
(8) الهاشمي وآخرون: الحضارة العربية، 158.
(9) رحلة ابن بطوطة،37.
(10) القلقشندي: صبح الأعشى ، 368/3؛ السيوطي: حسن المحاضرة ، 260/2؛ حتي وآخرون: تاريخ العرب، 782/2؛ حمزة: الحركة الفكرية، 207.
(11) ابن عبد الظاهر: الروضة البهية، 49؛ المقريزي: الخطط، 570/3؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 55/6؛ الحنبلي: شفاء القلوب، 189؛ ابن إياس: تاريخ مصر، 72/1؛ بهجت: أثر الحضارة السلجوقية، 1/122-123.
(12) ابن عبد الظاهر: الروضة البهية،49-50؛ المقريزي: الخطط،570/3؛ مبارك: الخطط التوفيقية، 211/4.
(13) سلام: الأدب في العصر الأيوبي، 65.

شاع هذا النوع من بيوت العبادة حتى صار الأمراء في القاهرة في العصر الأيوبي ومن بعده المملوكي، يتسابقون على إقامة المزيد منها[1].

أما الخانقاه الصلاحية فكانت أشبه ماتكون بالمدرسة من حيث الشكل والوظيفة[2]، وتكونت الخانقاه من مدخل بسيط يؤدي إلى صحن كبير مكشوف تتعامد عليه أربعة ايوانات هي: إيوان القبلة، والإيوان الشرقي، والإيوان الجنوبي، والإيوان الغربي المقابل لإيوان القبلة أو إيوان المحراب[3]. أما في مجال الزخرفة المعمارية في الخانقاه، فقد جاءت مشتملة على كثير من مظاهر العظمة المعمارية والفنية التي تجلت في واجهتها الداخلية والخارجية وفي محاربيها وقبابها وأرضياتها وسقوفها، وفي كل ما اشتملت عليه من منابر وكتيبات وكراسي وغيرها، فزخرت هذه الأجزاء بشتى آيات النقش ممثلا في كافة عناصر الزخرفة النباتية والهندسية والكتابية التي عرفتها الفنون العربية الإسلامية بصفة عامة[4].

كما عرفت مصر في العصر الأيوبي عدد من الربط والزوايا، فقد أشار ابن خلكان أن بهاء الدين قراقوش أنشأ رباطاً بالمقس[5]. وأنشأ الوزير صفي الدين بن شكر رباطاً بالقرب من مدرسته الصاحبية التي ذكرناها في موضوع المدارس[6]. كما انشأ فخر الدين بن قزل، أستادار الملك الكامل، رباطاً في القرافة وبجواره كتاب للسبيل[7]. أما الزوايا فمنها زاوية القصري، التي التي أنشأها الشيخ أبي عبد الله محمد بن موسى عبد الله بن حسن ألقصري، بخط المقس خارج القاهرة فعرفت به[8]. وانشأ الوزير مجد الدين أبو الأشبال الحرث بن مهذب الدين أبي المحاسن مهلب بن حسن بن بركات، الزاوية المجدية عندما كان وزيراً للأشرف موسى بن العادل بن أيوب، وموقعها بصدر الجامع العتيق داخل المقصورة الوسطى بجوار المحراب الكبير[9]. وأنشأ وأنشأ الصالح نجم الدين أيوب زاوية الشيخ أبي الخير، بخط دار النحاس بحضرة بستان العالمة مطلة على النيل في الفسطاط[10]. وأنشأ الطواشي بلال الفراجي زاوية الخدام، التي تقع خارج باب النصر فيما بين شقة باب الفتوح من الحسينية وبين شقة الحسينية خارج باب النصر[11].

أما من الناحية العمرانية للأربطة فقد شبهها بعض الباحثين بالأديرة المحصنة عند المسيحيين[12]، إلا أن الرأي الراجح عند البعض الآخر من الباحثين أن مخطط الرباط ماهو إلا نظام معماري مقتبس من القصور الأموية في بلاد الشام[13]. فهي بذلك شأنها شأن بقية المنشآت المعمارية التي ذكرناها، ذات التأثير الشامي على مصر.

---

(1) حسين: دراسات في الشعر، 64-65؛ شاندور: صلاح الدين الأيوبي، 143.

(2) رزق: خانقاوات الصوفية ، 22/1.

(3) محمد عبد العزيز مرزوق: الفن الإسلامي في العصر الأيوبي، دار القلم، (القاهرة، 1963)،39؛ رزق: خانقاوات الصوفية، 153,155/1-156.

(4) رزق: خانقاوات الصوفية، 25/1-26.

(5) وفيات الأعيان، 91/4.

(6) المقريزي: الخطط ،605/2.

(7) المنذري : التكملة ، 43/6؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، 359/45؛ الصفدي: الوافي، 331/19؛ المقريزي: الخطط، 448/3.

(8) المقريزي: الخطط،620/3.

(9) مبارك: الخطط التوفيقية، 23/4.

(10) ابن دقماق: الانتصار،103/5.

(11) المقريزي: الخطط ، 614/3.

(12) مرزوق: الفن الإسلامي، 39.

(13) أنور الرفاعي: تاريخ الفن عند العرب والمسلمين ، ط2، دار الفكر، (دمشق،1977)،107.

سادساً: البيمارستانات:

أول من أنشاء المارستان في الإسلام الخليفة الوليد بن عبد الملك (86-96هـ/705-714م) في العصر الأموي في بلاد الشام سنة 88هـ/707م وجعل فيه الأطباء، وأجرى لهم الأرزاق، وهذا المارستان خاص بالمجذومين[1]، ثم تتابع إنشاء المشافي التي عرفت باسم البيمارستان أيضاً[2].

أما مصر فكان مارستان ابن طولون أول مارستاناً يبنى فيها، ولم يكن قبل ذلك بمصر مارستان، ثم تبعه في هذا الميدان من خلفه على ولاية مصر وخلفاء الفاطميين[3]. فبذلك تكون مصر قد عرفت المارستان قبل مجيء الأيوبيين إليها، إلا أن دور الأيوبيين ومن جاء معهم من الشام في مجال عمارة المارستان يتضح عندما استحدثوا مخططاً جديداً لعمارة المارستان في مصر[4]، والراجح أن البنائين وضعوا تصميم المارستان في مصر وتخطيطه على طراز المارستان الذي أنشأه نور الدين محمود في دمشق[5]. وقد شيد السلطان صلاح الدين مارستانات مارستانات ثلاثة بالقاهرة والفسطاط والإسكندرية على التوالي[6].

كان المارستان الناصري أو ألصلاحي في القاهرة أول مارستان بناه السلطان صلاح الدين، فبعد أن استولى السلطان صلاح الدين على قصر الفاطميين سنة 567هـ/1171م، وكان في القصر قاعة بناها الخليفة الفاطمي العزيز بالله سنة 384هـ/994م، فجعل السلطان صلاح الدين منها بيمارستاناً، وهو البيمارستان المشهور بالعتيق بالقصر[7].

ويذكر القلقشندي: " أن فيها طلسما لايدخلها نمل، وان ذلك هو السبب الموجب لجعلها بيمارستانا "[8]. وأوقف عليها السلطان صلاح الدين الوقوف العظيمة[9].

أما بالنسبة للمارستان الذي أنشاه بالفسطاط، فأن المصادر التاريخية لم تحدد مكانه بالضبط، فاكتفى المقريزي بذكر إشارة عن بناء هذا المارستان، فيذكر، "... وكذلك بمصر آمر (السلطان صلاح الدين) بفتح مارستانها القديم..." [10]. ويرى نيل دي ماكنزي انه ربما أراد المقريزي بذكر المارستان القديم بالفسطاط، أن يشير إلى مارستان كافور الإخشيدي[11].

وأنشأ السلطان صلاح الدين مارستاناً في الإسكندرية، عندما سار إليها سنة 577هـ/1181م، ليتفقد أحوالها ويسمع الحديث من مشايخها[12].

سابعاً: القباب:

---

(1) المقريزي: الخطط،545/3.
(2) السباعي: من روائع حضارتنا ،107.
(3) القلقشندي: صبح الأعشى ،347/3؛ المقريزي: الخطط، 545/3- 553.
(4) عباس: تاريخ بلاد الشام، 288.
(5) حتي وآخرون: تاريخ العرب،783/2؛ الحسين: موسوعة الحضارة، 277.
(6) ربيع: النظم المالية، 73.
(7) القلقشندي: صبح الأعشى ،369/3؛ المقريزي: الخطط،160/2؛ عيسى بك: تاريخ البيمارستانات، 76-77؛ مبارك: الخطط التوفيقية، 238/2.
(8) صبح الأعشى، 369/3.
(9) ابن الأثير: الكامل،441/11؛ سبط بن الجوزي: مرآة الزمان، 339/8؛ أبو شامة: الروضتين، 294/2؛ ابن واصل: مفرج الكروب، 55/2؛ الحنبلي: شفاء القلوب،189.
(10) الخطط،160/2.
(11) القاهرة الأيوبية ،238.
(12) المقريزي: السلوك، 76/1.

رغم ما نص عليه الإسلام من منع إقامة عمائر الأضرحة، إلا أن هذه العمائر قد تمت وانتشرت، وأدت دوراً هاماً في مدينة القاهرة. فقد بدأت بالظهور عندما شرعت الطبقات الحاكمة في إعداد الأضرحة لأفرادها أو لأسرهم أو الرجال الصالحين، وتحت إشرافها مباشرة، وكانت تأصلت في بلاد الشام أولا في ظل حكم الأيوبيين لها، وانتقلت إلى القاهرة في أواخر العصر الأيوبي[1]. ومن أشهر قباب العصر الأيوبي في مصر قبة الإمام الشافعي، وقبة الصالح نجم الدين أيوب، وقبة برج الظفر وقبة الخلفاء العباسيين[2].

أما قبة الإمام الشافعي التي أنشاها الملك الكامل سنة 608هـ/1211م فتعد من أهم الآثار والمنشات العمرانية[3]. وتقع في شارع الإمام الشافعي، ويحوي ضريحاً للإمام، وفيه أربعة قبور، أولها قبره الذي كان له تابوت فاخر عمل في سنة 574هـ/1178م، وهذا التابوت المصنوع من خشب الساج الهندي غطاءه هرمي الشكل، عليه نقوش وكتابات بالخط الكوفي والنسخ وخط الثلث على مهاد من زخارف التوريق العربية داخل مناطق هندسية وزخارفه وحدات نباتية دقيقة داخل مناطق هندسية[4]، وكتب عليه آيات قرآنية، وترجمة حياة الشافعي بالخطين الكوفي والنسخ الأيوبي، ومنها نقش باسم النجار الذي صنعه، وهو عبيد النجار المعروف بابن المعالي[5].وقد ورد نص على منبر المسجد الأقصى فيه أسم نجار هو نفسه الذي ورد في التابوت وهو عبيد النجار المعروف بابن المعالي العسقلاني[6]. أما القبر الثاني فيضم تابوت أم الملك الكامل، الذي أنشأه سنة 608هـ/1212م من الخشب المزخرف[7]، ويتكون من أربعة جوانب قسم إلى حشوات مستطيلة ومربعة تحيطها أفاريز مشتقة من الكتابات الكوفية وشغلها وحدات هندسية مملوءة بزخارف التوريق على غرار زخارف التوابيت الأخرى[8]. أما التابوتان التابوتان الآخران فأحدهما للسيد محمد بن عبد الحكم[9] والآخر للملك الكامل[10].

وقد أستخدم الأيوبيين في عمارة مشهد الإمام الشافعي الحجارة، فقاموا بتنظيمها وصقلها[11]، وتألف الضريح من غرفة كبيرة مربعة فوقها قبة طويلة محززة[12]. أما القبة فكانت من الخشب ومكسوة بالرصاص وكسيت جدرانها الداخلية بالرخام وفي جدارها الشرقي ثلاثة محاريب أقوامها خشبية منقوشة ثم محراب رابع أحدث لتصويب القبلة، فكانت قبة الإمام الشافعي من أجمل القباب في مصر حيث نجد القبة مكونة من ثلاث حطات مخصوصة

---

(1) كريستل كسلر: " عمارة الأضرحة في داخل مدينة القاهرة " ، أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة، دار الكتب، القاهرة، (1971)، 867/2.

(2) سامح: العمارة الإسلامية،207.

(3) ابن خلكان: وفيات الأعيان ،81/5؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة،229/6؛ النعيمي: الدارس، 277/2؛ ابن ابن عماد الحنبلي: شذرات الذهب، 172/5؛ مبارك: الخطط التوفيقية، 74/1؛ سامح: العمارة الإسلامية،15.

(4) سامح: العمارة الإسلامية، 76.

(5) زكي: قلعة صلاح الدين، 132- 133؛ عاشور: الأيوبيين والمماليك، 170.

(6) حسن: فنون الإسلام، 462، 464؛ عبد العزيز حميد وآخرون: الفنون الزخرفية العربية الإسلامية، جامعة بغداد، (بغداد، 1982)، 38.

(7) ماهر: مساجد مصر، 157/2.

(8) حميد وآخرون: الفنون الزخرفية،39.

(9) محمد بن عبد الحكم: محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله ، احد أبناء المؤرخ الشهير ابن عبد الحكم، كان فقيهاً وكاتباً معروفاً، وخلف أباه في رئاسة المالكية بمصر. توري: مادة " ابن عبد الحكم "،دائرة المعارف الإسلامية، نقلها إلى العربية: محمد ثابت الفندي وآخرون،(1933م)، 221/1.

(10) ماهر: مساجد مصر، 157/2.

(11) حميد وآخرون: الفنون الزخرفية، 14.

(12) عباس: تاريخ بلاد الشام، 288.

مزخرفة، تتكون الحطة السفلية منها من خمسة مقرنصات[1] تعلوها سبعة في المنطقة الوسطى، وثلاثة في المنطقة العلوية، وفيها من الخارج قارب برونزي يعرف بالعشاري[2] كان يوضع فيه فيه الحبوب لأكل الطيور[3].

ومن القباب الأخرى التي عرفتها مصر في العصر الأيوبي، قبة الملك الصالح نجم الدين أيوب التي انشاتها زوجته عصمة الدين شجرة الدر، ونقلت إليها جثة الملك الصالح نجم الدين في سنة 648هـ/1250م[4]، وهذه القبة بالقاهرة ملاصقة للإيوان الغربي للمدرسة الصالحية[5]، وموضعها كان قاعة شيخ المالكية[6]. وتمتاز قبة الصالح نجم الدين أيوب بالبساطة من الداخل والخارج، وأهميتها ترجع إلى تطور المقرنص فيها وزيادة حطاته وتغييرها تغييراً كلياً عن القبة الفاطمية، وطرازها يشبه قبة الخلفاء العباسيين التي تظم رفات أفراد من الخلفاء العباسيين الذين توفوا بمصر في القرنين السابع والثامن الهجري[7].

ثامناً: عمائر أخرى:

أهتم الأيوبيين بإنشاء العمائر والمباني، ففي عهد السلطان صلاح الدين توسعت القاهرة بالمباني[8]، كما أهتم السلطان بعمارة الإسكندرية[9]. وسار أمراء وخلفاء السلطان صلاح الدين على سياسته في مجال الاهتمام بالعمارة وإنشاء المباني المختلفة التي تخدم المجتمع المصري، فهذا الأمير تقي الدين عمر يقيم الفنادق وشيد سوراً طويلاً بالحجر[10] وكثرة العمارة في القاهرة وضواحي القلعة في عهد الملك العادل[11]. وأنشأ الملك الكامل مدينة المنصورة سنة 616هـ/1219م[12]، وأقام فيها الدور والفنادق والحمامات والأسواق[13]، وسار الملك الصالح نجم الدين أيوب على خطى والده فأنشأ مدينة الصالحية، وأقام بها قصوراً وجامعاً وسوقاً[14]. كما انشأ الصالح نجم الدين الميدان السلطاني بأرض اللوق[15]، وأقام به المناظر الجليلة، ويقع هذا

---

(1) المقرنصات: حليات معمارية تشبه خلايا النحل تستعمل إما كوسيلة إنشائية أو زخرفيه. سامح:العمارة الإسلامية، 176.

(2) العشاري: مركب صغير مثبت في هلال القبة وتتدلى منه سلسلة حديدية وكان يستعمله الملوك وكبار رجال رجال الدولة، ويقال إن السلسلة قد أعدت ليتسلقها الإنسان لوضع الماء والحبوب للطيور. سامح: العمارة الإسلامية،208.

(3) سامح: العمارة الإسلامية، 76-77.

(4) المقريزي: الخطط،466/3؛ العيني: عقد الجمان،37/1؛ سامح: العمارة الإسلامية،208.

(5) المقريزي: الخطط،466/3؛ سامح: العمارة الإسلامية، 208.

(6) المقريزي: الخطط، 466/3.

(7) سامح: العمارة الإسلامية، 209.

(8) المقريزي: الخطط، 61/2.

(9) أبو شامة: الروضتين، 59/3.

(10) ابن دقماق: الانتصار، 40/5، 93؛ المقريزي: السلوك، 90/1-91.

(11) مبارك: الخطط التوفيقية،1/ 73-74.

(12) الحموي: معجم البلدان، 212/5.

(13) ابن واصل:مفرج الكروب، 33/4؛ ابن دقماق: الانتصار، 71/5؛ المقريزي: الخطط،643/1، السلوك، 201/1-202.

(14) المقريزي: الخطط، 518/1، السلوك،341/1-342.

(15) ارض اللوق: هي ارض معروفة بمصر وهي أرض لينة لاتحتاج إلى حراثة للينها بل تلاق لوقاً، وكان فيها بساتين ومزروعات. المقريزي: الخطط،635/2.

الميدان على النيل[1]. فكان من نتائج اهتمام الصالح نجم الدين أيوب بالعمارة أن انتشر العمران في عهده[2].

أهتم الأيوبيين سلاطين وأمراء ببناء المساجد وترميم القديم منها، فعلى الرغم من أن المصادر التاريخية لم تذكر أن السلطان صلاح الدين قد بنى مسجداً جديداً في أي مكان من دولته ومنها مصر، إلا أنها أشارت إلى اكتفائه بإصلاح وتحسين وتوسيع الموجود منها[3]، فكان فكان مسجد عمرو بن العاص على راس اهتماماته في هذا المجال، فأعاد بناء الصدر والمحراب الكبير وكساه بالرخام وزينه ونقش عليه أسمه والمناسبة التي دعت إلى هذا التجديد، وعمر المنظرة التي تحت المئذنة الكبيرة وجعل لها سقاية[4]. كم جدد السلطان صلاح الدين جامع الحاكم بأمر الله ووقف عليه الأوقاف[5].

وقام القاضي الفاضل بناء مسجد قرب مشهد الإمام الحسين(عليه السلام) بالقاهرة[6]، وجدد بهاء الدين قراقوش جامع قيدان خارج القاهرة[7]. وبنى الأمير فخر الدين جهاركس مسجداً كبيراً في القاهرة بأعلى القيسارية التي عمرها به[8].

وقام الملك الكامل بإدخال الزيادات وترميم الجامع المجاور لقبة الإمام الشافعي، حيث اهتم به ونصب له منبرا[9]. وفوض الصالح نجم الدين أيوب، عمارة المساجد المهجورة وترميمها بمصر لعز الدين بن عبد السلام[10]. وأهم مايميز عهد الصالح نجم الدين بوجه الخاص والعصر الأيوبي بوجه عام هو تطور المئذنة التي أخذت شكلاً خاصاً يعرف "بالمبخرة" [11]. وتعتبر مئذنة جامع الصالح نجم الدين النموذج الأصلي لمآذن العصر الأيوبي، وتتكون من قاعدة مربعة تنتهي بشرفة مثمنة محمولة على كوابيل خشبية ويعلوها طابق أخر مثمن الشكل واقل ارتفاعاً من السفلى، ويعلوا المنطقة المثمنة صفان من المقرنص وفي أعلى القمة توجد قبة لها استطالة راسية ومضلعة تعرف باسم " المبخرة " وهذا الشكل هو المميز لأغلب المآذن التي بنيت في العصر الأيوبي[12]. كما انشأ الأمير سعد الدين مسعود بن بدر الدين هنس بن عبد الله – وهو احد حجاب الصالح نجم الين أيوب – مسجداً في مصر[13].

أما عن المساجد في الإسكندرية فقد تميزت بكثرتها، وهذا أمر يعبر عن غلبة النزعة الدينية في الإسكندرية في عصر سيطرت فيه الرغبة في الجهاد والرباط ومقاومة الصليبيين[14]. وخير دليل على كثرة مساجد الإسكندرية ماذكره الرحالة ابن جبير في زيارة للإسكندرية فيذكر " وهو أكثر بلاد الله مساجد، حتى إن تقدير الناس لها يطفف، فمنهم المكثر والمقلل، فالمكثر

---

(1) مبارك: الخطط التوفيقية، 79/3، 224.
(2) المقريزي: الخطط، 17/2؛ مبارك: الخطط التوفيقية، 75/1-76.
(3) طقوش: تاريخ الأيوبيين، 215.
(4) ابن دقماق: الانتصار، 69/5؛ المقريزي: الخطط، 159/3؛ الحنبلي: شفاء القلوب، 189؛ السيوطي: حسن المحاضرة، 243/2؛ قراعه: مساجد ودول، 158-159؛ مبارك: الخطط التوفيقية، 19/4.
(5) السيوطي: حسن المحاضرة، 251/2.
(6) المقريزي: الخطط، 206/2.
(7) مبارك: الخطط التوفيقية، 64/2.
(8) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 381/1؛ المقريزي: الخطط ، 560/2-561؛ مبارك: الخطط التوفيقية،253/2.
(9) المقريزي: الخطط، 270/3؛ مبارك: الخطط التوفيقية، 151/4.
(10) السبكي: طبقات الشافعية، 101/5.
(11) سامح: العمارة الإسلامية، 72.
(12) سامح: العمارة الإسلامية، 190-191.
(13) المقريزي: الخطط، 676/2.
(14) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، ط1، مؤسسة شباب الجامعة، (الإسكندرية، 1982)، 256.

ينتهي في تقديره إلى أثنى عشر ألف مسجد، والمقلل مادون ذلك لاينضبط، فمنهم من يقول ثمانية ألاف ومنهم من يقول غير ذلك وبالجملة فهي كثيرة جداً تكون منها الأربعة والخمسة في موضع... وهذه منقبة كبيرة من مناقب السلطان(صلاح الدين). إلى غير ذلك مما يطول ذكره من المآثر التي يضيق عنها الحصر " [1] .

لقد كان ماقد تم تشيده من مساجد في العصر الأيوبي قليل للغاية، حيث إن التركيز كان منصب على أعادة تصحيح العقيدة وتجديد وإعادة بناء المساجد التي كانت قد أقيمت في العصر الفاطمي وما قبله [2].

كما أهتم الأيوبيين ببناء القيساريات[3] بمصر، فقد أقام السلطان صلاح الدين قيسارية عظيمة عندما بنى القلعة[4]. وهناك قيسارية الشرب في القاهرة التي أوقفها السلطان صلاح الدين على صوفية خانقاه سعيد السعداء[5]. بالإضافة إلى قيسارية ابن قريش وهو القاضي المرتضى صفي الدين أبو المجد عبد الرحمن بن علي بن عبد العزيز بن علي بن قريش أحد كتاب الإنشاء في أيام السلطان صلاح الدين، أستشهد سنة (586هـ/1180م)، وتقع هذه القيسارية في صدر سوق الجملون الكبير بجوار باب سوق الوراقين[6]. كما أنشأ القاضي الفاضل قيسارية قيسارية بمصر عرفت باسمه[7]. أما قيسارية جهاركس التي بناها الأمير فخر الدين جهاركس الذي عرف عنه الاهتمام بالأمور الاقتصادية التجارية[8]، فتعد قيساريته التي بناها بالقاهرة سنة 592هـ/1195م من كبرى القيساريات وأهمها[9]. فيذكر ابن خلكان عن أهمية هذه القيسارية " رأيت جماعة من التجار الذين طافوا البلاد يقولون: لم نر[ى] في شيء من البلاد مثلها في حسنها وعظمها وإحكام بنائها " [10].

واهتم الأيوبيين بإنشاء الجسور، لأنها تتحكم في مجرى النيل، فكانت مصر تحتاج إلى هذه الجسور للمحافظة على البلاد من الفيضان أولاً، ولتصريف مياه النيل ثانياً[11]، ولحماية البلاد من هجمات الأعداء من الخارج ثالثاً [12].

وعرفت مصر في العصر الأيوبي نوعين من الجسور هما:الجسور السلطانية[1]، والجسور البلدية[2]. وقد انشأ السلطان صلاح الدين جسر الجيزة لحماية البلاد من الغزوات

---

(1) رحلة ابن جبير، 17.

(2) ماكنزي: القاهرة الأيوبية،216.

(3) القيساريات،مفردها قيسارية: وهي لفظة يونانية معربة أطلقت على سوق مغلق بأروقة تحيط بصحن مكشوف، يضم عدداً كبيراً من الدكاكين والمشاغل وأماكن إقامة المسافرين و وهو مخصص للتجار الغرباء، يضعون بضائعهم في أعلاه. الحجازي وآخرون: النجوم الزاهرة،27؛ الحسين: موسوعة الحضارة،277.

(4) الحجازي وآخرون: النجوم الزاهرة،27.

(5) المقريزي: الخطط، 558/2؛ مبارك: الخطط التوفيقية،252/2.

(6) المقريزي: الخطط، 558/2.

(7) المقريزي: الخطط، 564/2.

(8) محمد مؤنس عوض: صلاح الدين الأيوبي بين التاريخ والأسطورة، ط1،عين للدراسات والبحوث،(الجيزة،2008)، 245.

(9) ابن عبد الظاهر: الروضة البهية،23-24؛ الداوداري: كنز الدرر، 131/7؛ المقريزي: الخطط، 560/2-561. 561.

(10) وفيات الأعيان، 381/1؛ وينظر المقريزي: الخطط،561/2؛ النعيمي: الدارس، 496/1.

(11) غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري: كتاب زبدة كشف عن مماليك وبيان الطرق والمسالك، اعتنى بتصحيحه: بولس راويس ، المطبعة الجمهورية، (باريس، 1894)، 129.

(12) ابن جبير: رحلة ابن جبير، 27؛ حسن: تاريخ الإسلام، 578/4.

القادمة من المغرب[3]. وكان الملك الكامل من أشد سلاطين الأيوبيين وأكثرهم اهتماماً بإنشاء الجسور[4]، فقد أمر فخر الدين عثمان بن إبراهيم النابلسي بالإقامة في الجيزة لحفظ الجسور بالإضافة إلى تعيينه ثلاثة أو أربعة أمراء لمساعدة المسؤول عن أقامة الجسور[5]. كما شارك مع الأمراء والجند بحفر قناة بين المقياس وبر مصر، في سنة 628هـ/1230م حيث وصلت هذه القناة بين الفسطاط وجزيرة الروضة لمساعدة الناس على نقل المياه ومقاومة جفاف نهر النيل[6]. كما أنشأ الصالح نجم الدين أيوب جسراً بين مصر والروضة، وجعل عرضه ثلاث قصبات[7].

كما عرفت مصر القناطر منذ القدم واهتم بها الأيوبيين، فيذكر المقريزي عن أهمية هذه القناطر قائلاً: "حتى إن الماء ليجري تحت منازلها وأفنيتها فيجسونه كيف شاءوا ويرسلونه كيف شاءوا" [8] والدليل على ذلك قوله تعالى عما حكى عن قول فرعون: ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﭼ[9].

اهتم السلطان صلاح الدين ببناء القناطر بغربي مصر وهي قناطر الجيزة، وقد تم بنائها مع بناء السور والقلعة واستخدم بهاء الدين قراقوش حجارة الأهرام الصغيرة وتعد هذه القناطر من الأبنية العجيبة ويقرب عددها من الأربعين قنطرة[10]. كما بنى الأمير عز الدين موسك وهو احد أقارب السلطان صلاح الدين، قنطرة عرفت باسمه على الخليج الكبير" يتوصل إليها من باب الخوخة وباب القنطرة ويمر فوقها إلى بر الخليج الغربي"[11]. وانشأ الملك الصالح نجم الدين أيوب قنطرة عرفت بقنطرة باب الخرق على الخليج الكبير، وكان سبب بناء هذه القنطرة هو عمل الميدان الذي أتخذه للتدريب والتمرين والأعمال الحربية بأرض اللوق[12].

واهتم الأيوبيين ببناء الحمامات المتقنة الصنع،والتي امتازت بأرضها المكسوة بالرخام الجميل والأحواض الواسعة التي يجري فيها الماء الساخن والبارد[13]. ومن أهم هذه الحمامات حمام سعيد السعداء الذي أنشأه السلطان صلاح الدين لصوفية الخانقاه[14]، والحمام الذي بناه زين الدين أبو الحسن علي بن نجا الواعظ الدمشقي بالقاهرة خارج باب زويلة[15]. وهناك حمام المصبغة أو القفاصين الذي أقامه نجم الدين يوسف بن المجاور وزير الملك العزيز عثمان بن

---

(1) الجسور السلطانية: وهي الجسور العامة التي يتولى أقامتها في كل سنة الديوان السلطاني، للحفاظ على البلاد كافة من خطر الفيضانات. ابن مماتي: قوانين الدواوين، 232؛ القلقشندي: صبح الأعشى،444/3.

(2) الجسور البلدية: هي الجسور الخاصة ببلد دون بلد، ويتولى أقامتها الفلاحون والمقطعون بالبلاد: من الأمراء والأجناد وغيرهم، من أموال البلاد الجارية في إقطاعهم؛ ولها ضرائب مقررة في كل سنة. ابن مماتي: قوانين الدواوين، 232؛ القلقشندي: صبح الأعشى، 445/3.

(3) حسن: تاريخ الإسلام، 578/4.

(4) الصائغ: عصر الملك الكامل، 200.

(5) النابلسي: لمع القوانين، 39-40 نقلاً عن الصائغ:عصر الملك الكامل،200.

(6) المقريزي: السلوك، 241/1.

(7) المقريزي: الخطط، 800/2-801، السلوك، 341/1.

(8) المقريزي: الخطط، 203/1.

(9) الزخرف، آية 51.

(10) البغدادي: الإفادة والاعتبار، 108؛ ابن دقماق: الانتصار، 126/5-127؛ ابن جبير: رحلة ابن جبير، 27؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، 312/42؛ المقريزي: الخطط، 722/2؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 177/6؛ مبارك: الخطط التوفيقية، 69/1-70.

(11) المقريزي: الخطط، 710/2.

(12) المقريزي: الخطط، 710/2، السلوك، 305/1؛ مبارك: الخطط التوفيقية، 76/1-77 ، 79/3.

(13) غنيم: الدولة الأيوبية، 140.

(14) ابن جبير: رحلة ابن جبير، 15؛ المقريزي: الخطط، 554/2؛ مبارك: الخطط التوفيقية، 218/2.

(15) أبو شامة: الروضتين، 50/3.

صلاح الدين[1]. وقد امتازت هذه الحمامات بجمالها مما دفع عبد اللطيف البغدادي الذي زار القاهرة في العصر الأيوبي إلى القول: " فلم أشاهد في البلاد أتقن منها وضعاً ولا أتم حكمة ولا أحسن منظراً ومخبراً " [2].

من ذلك يتضح لنا أن عجلة الفن لم تتوقف في العصر الأيوبي في مصر وبلاد الشام،وان صليل السيوف في ذلك العصر لم يوقف تيار التقدم الحضاري .ففي الوقت الذي كان الأيوبيين يخوضون أضخم معركة للجهاد دخلها المسلمون منذ قيام دولتهم الكبرى في القرن السابع الميلاد، إذا بالمدارس تفتح، والمكتبات تنشأ والحصون والقلاع تبنى، والصناعات والحرف والفنون تواصل تقدمها في أقامة أعظم بناء حضاري شهدته العصور الوسطى، وهو بناء الحضارة الإسلامية [3] .

(1) مبارك: الخطط التوفيقية، 254/2.
(2) الإفادة والاعتبار ،141-142.
(3) عاشور: مصر والشام، 150.